الأسس المنهجيَّة في تفسير" البحر المحيط "
لأبي حيَّان الأندلسي (ت : 745هـ)

أ.عبد الرَّحيم بوقطة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخَّص:

تدور فكرة المقال حول بيان الأسس المنهجيَّة والخصائص العلميَّة لتفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي ، وبيان مدى تأثير الملكة اللُّغوية لأبي حيان الأندلسي في منهجه في الكتابة كونُ الرَّجل من علماء العربيَّة ، ومن أعلام النَّحاة بوجه خاصٍّ حتى إنَّ كثيرا من أهل العلم يَجعل تفسير البحر المحيط مصدرا من مصادر النَّحو لغزارة المادة النَّحوية في الكتاب فأردتُ أن أوضِّح في هذا المقال معالم منهج أبي حيَّان في تفسيره وما تميز به تفسيره من خصائص جعلته – مع كونه تفسيرا للقرآن الكريم – مرجعا نحويا عند كثير من المشتغلين بعلم النَّحو.

Abstract:

The article revolves around the statement of the methodological foundations and scientific characteristics of the interpretation of the ocean surrounding Abi Hayyan Andalusia and the extent of the influence of the linguistic queen of Abi Hayyan Andalusia in his writing method. The fact that the man is one of the Arab scholars, The source of the grammar sources of the mystery of the grammatical material in the book, I wanted to explain in this article the features of the method of Abu Hayyan in his interpretation and characterized by the interpretation of the characteristics made it - while being an explanation of the Koran - a reference to many grammatical practitioners of grammar.

أولا : مقدمة تعريفيَّة بالبحر المحيط:

تمهيد:

لقد تنوَّعت الحياة الثقافيَّة في الأندلس خلال القرنين السَّابع والتَّاسع الهجرِيَّيْنِ، حيث برزت معالم الفكر الأندلسي وملامحه من خلال كثرة الوافدين نحوها، والرَّاحلين عنها نحو بلاد المشرق، فساهمت هذه الرَّحلات العلميَّة سواء الداخليَّة أو الخارجية في إثراء الفكر الأندلسيِّ كما ساهم التَّواصل العلمي بين علماء الأندلس داخل الحواضر والمدن الأندلسية فأعطت دفعًا كبيرًا للحركة الفكرية، وأحدثت ثورة ثقافية حتى أضحى الإنتاج العلمي الأندلسي لا يمكن حصره في كتب ومجلدات في مختلف التخصصات من فقه وأدب وشعر[1].

وقد انْبَرَى علماء الأندلس – على مرِّ الأزمان – لدراسة كلامِ الله تبارك وتعالى فأَفْنوا في ذلك الأعمار، وبذلوا أنفسهم خدمة لكتاب ربهم تبارك وتعالى، فاستخرجوا منه الدرر ونهلوا من معينه العذب فتركوا لنا أطيب الأثر متمثلا في تلك التفاسير التي بلغت مشارق الأرض ومغاربها فانتفع بها الناس قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل.

ومن أبرز من ظهر في مجال التفسير من العلماء الأفذاذ الإمام المفسر : أثير الدِّين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان الأندلسي الغرناطي (ت:745هـ)، صاحب التَّفسير المشهور: بـ" البحر المحيط في التَّفسير" حيث أجاد في تفسير الآيات وتوجيه القراءات، فقد كان أبو حيان يتعرض فيه لوجوه التَّفسير المتعددِّة ؛ كذكره أوجه القراءات القرآنيَّة والمعاني اللغويَّة للآيات، والأسباب الواردة في نزولها

(1) مقال بعنوان الحياة الثقافية في الأندلس خلال القرنين (7– 9هـ)، زكرياء لامعة، دورية (كان) التاريخية،القاهرة، مصر، العدد 18، ديسمبر 2012، ص(47) بتصرف.

،ويتعرض أيضًا لذكر النَّاسخ والمنسوخ ، والأحكام الفقهية المتعلقة بآيات الأحكام . والرُّدود على المعتزلة، وهو أيضا مَحَطُّ أنظار أهل العلم عامَّة، وأهل العربيَّة خاصَّة ؛ إذ يُعدُّ – هذا التَّفسير – المرجع الأهمَّ لمن يُريد الوقوف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن ودقائق مسائلها النَّحويَّة .

ونظرا لاهتمام أبي حيَّان بالجوانب النَّحويَّة وإسهابه في ذكر مذاهب النَّحويين ومناقشاتهم جعل من تفسيره هذا مرجعا لأهل اللُّغة والعربيَّة حتى صنَّفه بعض اللُّغويِّين ضمن كتب النَّحو لاعتماد مؤلفه طريقة النُّحاة في مؤلفاتهم.

وفي هذا يقول الذهبي[1] واصفا البحر المحيط: غير أنَّه – والحق يقال – قد أكثر من مسائل النَّحو في كتابه، مع توسُّعه في مسائل الخلاف بين النَّحويِّين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النَّحو منه إلى كتب التَّفسير[2].

التعريف بالبحر المحيط -

يقع هذا التَّفسير في ثماني مُجلداتٍ كبار[3]، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم، ويعتبر عندهم المرجع الأول والأهمَّ لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم؛ إذ أنَّ الناحية النَّحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور

(1) محمد حسين الذهبي:(ت 1397 هـ) عالم أزهري كبير.عُرف ببحوثه القيمة في مناهج التفسير.. ينظر: تَكملَة مُعجم المُؤلفين، محمد خير بن إسماعيل ،دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ط: 1، سنة: 1997م،(01/ 474).

(2) التفسير والمفسرون ، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة ،(01/ 226).

(3) وقد اعتمدت في هذا المقال على طبعة دار الكتب العلميَّة للبحر المحيط ،بيروت لبنان، الطبعة الأولى ، سنة:2001م.

حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه النَّاحية، فهو ابن بجدتها وفارس حلبتها[1].

وتفسير البحر المحيط لم يكن مجرد تفسير بارز في مرحلة من مراحل التَّفسير، بل كان يمثل مرحلة مُستقلة بنفسه لما أحدثه من مُراجعات هامة في كتب التَّفسير بصفة عامَّة[2].

ولِمَا تميز به البحر المحيط من كثرة مباحثه في شتى العلوم اللُّغوية والبلاغية وما يتعلق بالقراءات، فقد أحدث أثرا بارزا فيمن جاء بعده، ففجَّر ثورة علميَّة ملحوظة، تجلَّت في عكوف كثير من أهل العلم على هذا التَّفسير العظيم، بالرَّغم من التَّطويل والإطناب الذي ميَّز كثيرا من مباحثه، والذي قد يُتعب الباحث فيه، وقد عبَّر أبو حيَّان عن هذا التَّطويل في مختصر تفسيره المُسمى بـ"النَّهر المادّ" وهو الدَّاعي له لاختصار تفسيره.

وكانت مظاهر التَّأثُّرِ بالبحر المحيط واضحة جليَّة في تلامذته بالدَّرجة الأولى، فقد تأثروا بطريقة شيخهم في التَّعليم وبسط المسائل، فاجتهدوا في دراسة هذا التفسير العظيم واستنباط درره واستخراج مكنوناته.

---

[1] التفسير والمفسرون (01/ 226).

[2] الموازنة بين تفسير الكشاف الزَّمخشري وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي،رمضان يخلف أطروحة دكتوراه،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر ، سنة : 2001م. (01/ 05).

ومن أبرز تلامذته وأكثرهم تأثُّرا به في التَّأليف: أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم[1]، الذي صنَّف كتابا سمَّاه (الدُّرُّ اللَّقيط من البحر المحيط)[2] وهو مطبوع بهامش تفسير البحر المحيط، بدار الفكر، بيروت، سنة1978م.

قال الصَّفدي[3]: "ووقفت له على الدُّرِّ اللَّقيط من البحر المحيط في تفسير القرآن، وهو كتاب ملكته بخطه في مجلدين، التقط فيه إعراب البحر المحيط تصنيف شيخنا العلامة أثير الدِّين فجاء في غاية الحُسن "[4].

وكان ممن تأثَّر به أيضا أحمد بن يوسف بن عبد الدَّايم بن محمد الحلبي[5]، المعروف بالسَّمين، له مصنفات منها: (الدُّر المصون في علم الكتاب المكنون).

قال صاحب كشف الظنون يصف كتاب الدُّر المصون: "هو مع اشتماله على غيره أجلُّ ما صُنِّفَ فيه -أي في علم إعراب القرآن- ؛ لأنَّه جمع العلوم الخمسة:

---

[1] ابن مَكْتُوم(682 – 749 هـ)أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي، أبو محمد، تاج الدين: عالم بالتراجم، مصري. له معرفة بالتفسير وفقه الحنفية. وله نظم جيد. ناب في الحكم بالقاهرة وتوفي بها ،الأعلام للزركلي،(01/ 153).

[2] أبو حيان الأندلسي ومنهجه في تفسير البحر المحيط وفي إيراد القراءات فيه، أحمد شكري، دار عمار،عمان،الأردن ط:01 ،سنة: 2007م، ص(94).

[3] صَلَاح الدِّين الصَّفَدي(696 – 764 هـ) خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين: أديب، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ينظر الأعلام للزِّركليِّ ،(02/ 316).

[4] الوافي بالوفيات (07/ 48).

[5] السَّمِين (ت 756 هـ) أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، مفسر، عالم بالعربية والقراءات. شافعيّ، من أهل حلب. استقر واشتهر في القاهرة. ينظر :الأعلام للزركلي،(01/ 274)

الإعراب والتَّصريف، واللغة، والمعاني، والبيان، ولخَّصه من البحر المحيط لأبي حيَّان"[1].

وقد أكثر فيه من النقل عن شيخه حتىٰ إنَّه نقل عنه أكثر من تسعمائة موضع يستفتحها بقوله: "قال الشَّيخ" وظهر هذا في مناقشاته له في تلك الأقوال ؛ قال السَّمين : " وذكرت كثيرا من المناقشات الواردة ...وهذا التَّصنيف في الحقيقة نتيجة عمري وذخيرة دهري، فإنَّه لُبُّ كلام أهل هذه العلوم. "[2]

فالنَّاظر في كلام السَّمين يرىٰ مقدار تأثر التِّلميذ بشيخه حتىٰ إنَّه جعل اختصاره لِمُباحثات شيخه نتيجة عُمُرِهِ وذخيرة دهره وهذا يدل علىٰ عِظَمِ المكانة التي كانت لأبي حيَّان في قلوب تلامذته.

كما أنَّ اهتمام من جاء بعد أبي حيَّان بالجانب النَّحوي يُظهر جَلِيًّا مدىٰ اعتماد أبي حيَّان في مادة تفسيره علىٰ عرض أقوال النُّحاة ومناقشاتهم وتعقيباته عليهم مما يجعل هذا التَّفسير من أهم مصادر النُّحاة في الاحتجاج لآرائهم النَّحوية في إعراب القرآن بصفة خاصَّة ، وفي مسائل الخلاف النَّحوية بين المدارس النَّحوية بصفة عامة.

وممن تأثر بأبي حيَّان الأندلسيِّ- من غير تلامذته- في التَّفسير: عبد الرَّحمن بن محمد بن مخلوف الثَّعالبي الجزائري المالكي[3] صاحب تفسير (الجواهر الحسان في

---

[1] كشف الظنون (01/ 81).

[2] الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف الحلبي"، دار القلم، دمشق،سوريا، دط،دت ،(01/ 06).

[3] عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري (786ه – 875 هـ)، أبو زيد: مفسر، من أعيان الجزائر، زارتونس والمشرق. من كتبه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن – ط) ، ينظر: شجرة النور

تفسير القرآن) إذ يقول: "وكل ما نَقلته عن أبي حيَّان فإنَّما نقلته بواسطة الصَّفاقسيِّ[1]"[2].

ومنهم شهاب الدِّين الآلوسي[3] في (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني)، حيث كان تفسير البحر المحيط في مقدمة مصادره، وأفاد منه في نواحي كثيرة، فكان ينقل عنه توجيه القراءات والدِّفاع عنها ضد الطَّاعنين عليها بغير علم، ويأخذ عنه بعض وجوه الإعراب في كثير من المواضع، ويجعل من كلامه حُكْمًا في مواضع الخلاف، فتارة يقول :"قال أبو حيَّان"، وتارة أخرىٰ ينقل عنه قائلا: " كما في البحر "، كما نقل عنه في أسباب النُّزول وجوانب أخرىٰ في التَّفسير[4].

ومن بين المتأثِّرين بأبي حيَّان وتفسيره أحد أعلام القرن الحادي عشر وهو يحيىٰ بن محمد الشَّاوي الجزائري[5]، حيث صنَّف كتابا بعنوان (المُحَاكَمَاتُ بين أبي حيَّان

الزكية في طبقات المالكية،محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، دت دط، ص (264) والأعلام للزركلي (03/ 331).

[1] إبراهيم بن محمد بن إبراهيم العلامة برهان الدين أبو إسحاق المغربي الصفاقسي المالكي صاحب كتاب إعراب القرآن له همة في العلوم والفضائل سكن بمصر توفي (742 ه) بالقاهرة. ينظر: شجرة النور الزكية ص (264).

[2] الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 01، سنة 1418 هـ (01/ 118).

[3] محمود بن عبد الله الحسينىٰ الآلوسىٰ، : مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، توفي سنة 1270 ه. من كتبه (روح المعاني – ط) في التفسير. ينظر : الأعلام للزركلي (07/ 176).

[4] الموازنة بين تفسير الكشاف الزمخشري وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ص(28).

[5] يحيىٰ بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسىٰ أبو زكريا، الشاوي: عالم بالنحو، مفسر، من فقهاء

وابن عطية[1] والزَّمخشري[2])، تتبَّع فيه مواطن الخلاف بين هؤلاء الأعلام مبينا وجه الحق الذي يظهر له من أقوالهم.

قال الشَّاوي: ".. وبعد، فالكتاب قصدت فيه جمع اعتراضات الإمام ذي البيان، المشتهر بأبي حيَّان، على ابن عطيَّة ومحمود الزَّمخشريِّ، والتَّكلم بما يظهر للقريب والبعيد، وأسأل الله في ذلك التَّسديد. "[3].

وأمَّا في مجال اللُّغة والنَّحو فقد كان البحر المحيط مرجعا من مراجع ابن هشام في كتابه مُغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، وعلى الرَّغم من كون ابن هشام لم يتتلمذ على يد أبي حيَّان في هذا الجانب ـ حيث اقتصر على سماع ديوان زهير بن أبي سلمى منه ـ فإنه كان كثير النَّقل عنه[4].

المالكية، أصله من مليانة. ينظر: معجمُ أعلام الجزائر (من صدر الإسلام حتّى العصر ـ الحاضر)، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان ط:02، سنة: 1980 م،(01/ 186).

(1)ابن عَطِيّة(481 – 542 هـ) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو محمد: مفسر فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة.ينظر الأعلام للزركلي، (03/ 282).

(2) الزَّمَخْشَرِي (467 – 538 هـ) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشريّ، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ينظر : الأعلام للزركلي ،(07/ 178).

(3) المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري، يحي بن محمد الشاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:01،سنة:1430ه. ص(05)

(4) الموازنة بين تفسير الكشاف الزَّمخشري وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ص(32).

فمن خلال ما سبق تتبين جلالة هذا السّفر العظيم، وجلالة مؤلفه فقد كان تفسير أبي حيَّان مرجعا يرجع إليه المفسرون والنَّحويون في مسائل التَّفسير والاحتجاج لها من لغة العرب في النَّحو، فَأَثَرُ هذا التَّفسير في من جاء بعد أبي حيَّان دلالة على أهميَّة الكتاب، خاصَّة إذا كان المتأثرون به من فطاحل العلماء وكبار الأدباء قديما وحديثا.

ثانيا : دراسة منهج " البحر المحيط"وخصائصه

كان منهج أبي حيَّان في التَّفسير قائما على أُسُسٍ وهي:

أولا: الكلام على مفردات الآيات ومعانيها اللُّغوية وأحكامها النَّحوية في ابتداء ذِكْرِهَا من كل سورة:

قال أبو حيَّان في مقدمة تفسيره: "وترتيبي في هذا الكتاب، أنِّي أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها فيما يُحتاج إليه من اللغة والأحكام النَّحوية التي لتلك اللَّفظة قبل التَّركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة؛ لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيُحمل عليه"[1].

ومما يدل على عظمة أبي حيَّان، ورسوخ قدمه في هذا الجانب – أي في اللُّغة والنَّحو–، عدم تأثره بمن سبقه من المفسرين وما قرروه من وجوه ضعيفة في الإعراب، فهو ينقلها بأمانة منسوبة لأصحابها، ثم يعرضها على ميزان النَّقد العلميِّ، فما كان يدعمه الدَّليل والبرهان قدَّمه وأخذ به، وما كان يفتقر للصِّحَّة ردَّه بغض النَّظر عن قائله[2].

---

[1] البحر المحيط (01/ 103).

[2] الموازنة بين تفسير الكشاف الزمخشري وتفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي، ص(17).

ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠﴾[البقرة: 200].

فنجده يتوسع في بسط آراء المفسرين في تفسير هذه الآية رَأيا رَأيا، ويجمعها في خمسة أوجه، ثم يُضَعِّفُهَا جميعا، ويختار وجها إعرابيًّا في الآية، ومعنى لم يذكره من سبقه مُدَلِّلا عليه بالسِّياق القرآني، فيقول: " فهي خمسة وُجوه من الإعراب كلُّها ضعيفة، والذي يتبادر إليه الذِّهن في الآية أنَّهم أُمروا بأن يذكروا الله ذكرًا يماثل ذكر آبائهم أو أشدَّ، وقد ساغ لنا حمل الآية على هذا المعنى بتوجيه واضح ذهلوا عنه، وهو أن يكون أشدَّ منصوبا على الحال، وهو نعت لقوله "ذكرًا " لو تأخر، فلما تقدَّم انتصب على الحال.. "[1].

وقد عِيب[2] على أبي حيَّان كثرة إسهابه في ذكر المعاني اللُّغوية، والأوجه النَّحوية والتَّوسع في سرد أقوال النُّحاة فيها حتى يتيه القارئ بين تلك الأقوال، لكن الحقَّ أنَّ أبا حيَّان يتوسع في ذكر الأوجه اللُّغوية والنَّحوية للكلمات في أول موضع تَرِدُ فيه وهذا من منهجه، فالنَّاظر في تفسير سورة البقرة يجد أنَّ أبا حيَّان أفرد لها مجلدا كاملا وأكثر من ثُلُثَيِّ المجلد الثَّاني من مجلداته الثَّمان في تفسيره، والسِّت الأُخر في تفسير باقي

---

[1] البحر المحيط (02/ 112).

(2) عاب هذا المسلك الأستاذ محمد بهجة البيطار ، وناقشه مناقشة مستفيضة. يُنظر: أبو حيان وتفسيره البحر المحيط بدر بن ناصر البدر ، مكتبة الرشيد ، الرياض ، المملكة العربية السُّعودية ، دط،سنة:2000م ، ص(73).

السُّور ؛ فالعارف بمنهج أبي حيَّان يُدرك أنَّ هذا التَّطويل هو منهج اتبعه أبو حيَّان في مواطن دون أخرى.

ثانيا: الكلام عن أسباب النُّزول إن وجدت: فقد اهتمَّ أبو حيَّان بذكر سبب النُّزول، وكان يبدأ به بعد شرحه للمفردات قال أبو حيَّان: "ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب"[1].

مثال ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿...وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾[البقرة: 189]

"قال البراء بن عازب ، والزُّهري[2]، وقتادة[3]، سبب نزولها أنَّ الأنصار كانوا إذا حجوا واعتمروا يلتزمون شرعاً أن لا يحول بينهم وبين السَّماء حائل، فكانوا يتَّسمون ظهور بيوتهم على الجدران، وقيل: كانوا في الجاهليَّة وفي بدء الإسلام إذا أحرم أحدهم بحج أو عمرة لم يأت حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدينة نَقَبَ في ظهر بيته نقباً يدخل منه ويخرج، أو ينصب سُلَّماً يَصعد منه، وإن كان

---

[1] البحر المحيط (01/ 103).

[2] الزهري (58 – 124 ه)، محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري،، أبو بكر: أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء. تابعي من أهل المدينة، ينظر: سير أعلام النبلاء (05/ 326)، الأعلام للزِّركليِّ (07/ 97).

[3] قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز الحافظ العلامة أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه المفسر حدث عن عبد الله بن سرجس وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب. ينظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي (01/ 92).

من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والْفُسْطَاطِ، ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتىٰ يحلَّ إحرامه، ويرون ذلك بِراً.. "[1].

وإن كان للآية أكثر من سبب نزول ذكر ذلك كلَّه، مثال ذلك ما جاء في تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يشرى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾[البقرة: 207]

قال أبو حيَّان"... وقيل: هي في مُعَيَّنٍ، فقيل في: الزُّبير والمقداد... وقيل: في صهيب الرُّوميِّ خرج مُهاجراً فلحقته قريش، ... وقيل: عُذِّبَ ليترك دينه فافتُدِي من ماله وخرج مُهاجراً، وقيل: في علي حين خَلَّفَهُ رسول الله ﷺ.. "[2]

ثالثا: الكلام عن النَّاسخ والمنسوخ إن كان هناك نسخ، رتَّب أبو حيَّان قوله مُتَابِعًا ذكر منهجه بعد الحديث عن أسباب النُّزول فقال: ".. وَنَسْخِهَا.. "[3].ومثاله قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[البقرة: 115].

قال أبو حيَّان: " وقال قتادة: أباح لهم في الابتداء أن يصلُّوا حيث شاؤا، فَنُسِخَ ذلك، أي حيثما كنتم من المشرق والمغرب، فأنتم قادرون علىٰ التَّوجُّه إلىٰ الكعبة، فعلىٰ هذا هي ناسخة لبيت المقدس"[4].

---

[1] البحر المحيط (02/ 70).

[2] البحر المحيط (02/ 127).

[3] المصدر نفسه (01/ 103).

[4] المصدر نفسه (01/ 529).

رابعا: بيان مناسبة الآية وارتباطها بما قبلها:

قال أبو حيَّان بعد ذكره للنَّاسخ والمنسوخ: ".. ومناسبتها وارتباطها بما قبلها.."[1].

وأمثلة ذلك كثيرة جدا، منها كلامه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾[البقرة: 67].

قال أبو حيان ".. ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنَّه تقدم ذكر مخالفتهم لأنبيائهم وتكذيبهم لهم في أكثر أنبائهم، فناسب ذلك ذكر هذه الآية لما تضمنت من المراجعة والتَّعنت والعناد مرَّة بعد مرّة.. "[2].

خامسا: ذكر القراءات الشَّاذة والمستعملة، مع توجيهها وفق علم اللُّغة العربيَّة.

قال أبو حيان: "حاشداً فيها القراءات شاذَّها ومُستعملها، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربيَّة"[3].ومن الأمثلة على ذلك تفسيره لقوله تعالى:﴿.. وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[البقرة: 9].

قال أبو حيَّان: "... وقرأ: وما يُخادِعُون، الحِرْميان[4]، وأبو عمرو[1].وقرأ باقي السَّبعة: وما يَخدَعُون. وقرأ الجارود بن أبي سبرة[2] : وما يُخْدَعون مبنياً للمفعول. وقرأ

---

[1] المصدر نفسه (01/ 103).

[2] المصدر نفسه (01/ 414).

[3] المصدر نفسه (01/ 103).

(4) لفظ حرمي اشترك فيه ابن كثير ونافع وهو نسبة إلى الحرم ، فقوله حرمي كقوله مكي وبصري وشامي وكوفي لأن كل واحد من ابن كثير ونافع منسوب إلى الحرم هذا من حرم مكة وذا من حرم

وقرأ بعضهم: وما يُخادَعون، بفتح الدَّال مبنياً للمفعول. وقرأ قتادة: وما يُخَدِّعُون، من خدَّع المشدّد مبنياً للفاعل، وبعضهم يفتح الياء والخاء وتشديد الدَّال المكسورة- يَخَدِّعُون. فهذه سِت قراءات ، توجيه الأولىٰ: أنَّ المعنىٰ في الخداع إنَّما هو الوصول إلىٰ المقصود من المخدوعِ إنما وباله راجع إلىٰ المخادع ، فكأنه ما خادع ولا كاد إلا نفسه بإيرادها موارد الهلكة ، وهو لا يشعر بذلك جهلاً منه بقبيح انتحاله وسوء مآله . وعبر عن هذا المعنىٰ بالمخادعة علىٰ وجه المقابلة ... "[3].

ثمَّ أورد معاني القراءات معنىٰ معنىٰ وتوجيه كل واحد منها.

سادسا: نقل أقاويل العُلَماء في فهم معنى، وبيان ما فيها من غوامض الإعراب ودقائق الآداب.

قال أبو حيَّان في سياق كلامه عن منهجه في التَّفسير: "... ناقلاً أقاويل السَّلف والخلف في فهم معانيها، متكلماً علىٰ جلِيِّها وخفيِّها، بحيث إنِّي لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتىٰ أتكلَّم عليها مُبدياً ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب

المدينة والتصريح بنسبتها أن يقول الحِرميان. ينظر: إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع، عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،(01/ 40).

[1] أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان، التميمي ثم المازني، المقرئ النحوي البصري الإمام-أحد القراء السبعة- مقرئ أهل البصرة ولد سنة 68ه ،وتوفي سنة 154ه. ينظر: معرفة القراء الكبار (01/ 104-106).

[2] جارود بن أبي سبرة الهذلي البصري وقد قيل البهدلي يروىٰ عن أنس بن مالك روىٰ عنه ربعي بن عبد الله مات سنة 120ه بالبصرة. ينظر : الثقات، محمد بن حبان البستي، دار الفكر، ط: 01، سنة 1395 (04/ 114).

[3] البحر المحيط (01/ 185).

من بديع وبيان، مجتهداً أنِّي لا أكرر الكلام في لفظ سَبَقَ، ولا في جملة تقدَّم الكلام عليها، ولا في آية فُسرت، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تُكُلِّم فيها على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيده فائدة.. "[1].

ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾[البقرة: 168].

قال: "طيباً: انتصب صفة لقوله: حلالاً، إمَّا مؤكدة لأنَّ معناه ومعنى حلالاً واحد، وهو قول مالك وغيره، وإمَّا مُخصَّصة لأنَّ معناه مُغاير لمعنى الحلال وهو المُسْتَلَذُّ، وهو قول الشَّافعي وغيره. ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر وكل ما هو خبيث. وقيل: انتصب طيباً على أنَّه نعت لمصدر محذوف، أي أكلاً طيباً، وهو خلاف الظَّاهر. وقال ابن عطيَّة : ويصحُّ أن يكون طيباً حالاً من الضَّمير في كلوا تقديره: مستطيبين[2]، وهذا فاسد في اللَّفظ والمعنى. أمَّا اللَّفظ فلأن طيباً اسم فاعل وليس بمطابق للضمير، لأنَّ الضمير جمع، وطيب مفرد، وليس طيب بمصدر، فيقال: لا يلزم المطابقة. وأمَّا المعنى: فلأنَّ طيباً مُغاير لمعنى مُسْتَطِيبِينَ، لأنَّ الطَّيب من صفات المأكول، والمستطيب من صفات الآكل. تقول: طاب لزيد الطعام، ولا تقول: طاب زيد الطعام، في معنى استطابه.. "[3].

---

[1] البحر المحيط (01/ 103).

[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية الأندلسي- دار الكتب العلمية – بيروت، ط: 01، سنة 1422 هـ (01/ 237).

[3] البحر المحيط (01/ 653).

ومثل هذا كثير في البحر المحيط، مما يدلُّ على سعة علم واطلاع مؤلفه وتمكُّنه في العلوم الشرعيَّة واللُّغويَّة.

سابعا: ترجيح الأخذ بظاهر اللَّفظ، والإعراض عن وجوه الإعراب التي يتنـزَّه عنها القران الكريم.

قال أبو حيَّان في هذا الشأن: "... مرجحاً له لذلك ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه، مُنْكِباً في الأعراب عن الوجوه التي تنزَّه القرآن عنها، مبيناً أنَّها مما يجب أن يُعْدَلَ عنه، وأنَّه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب؛ إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النَّحاة في شعر الشَّماخ[1] والطِّرماح[2] وغيرهما من سلوك التَّقادير البعيدة، والتَّراكيب القَلِقَةِ، والمجازات المعقَّدة.. "[3].

ومثال ذلك ما جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿... وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[البقرة: 58].

قال: ".. سُجَّدًا نصب على الحال من الضَّمير في ادخلوا، قال ابن عباس: معناه رُكَّعاً، وعبَّر عن الرُّكوع بالسُّجود، كما يُعبَّر عن السُّجود بالرُّكوع، قيل: لأنَّ الباب كان

---

[1] الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. وهو من طبقة لبيد والنابغة. جمع بعض شعره في (ديوان – ط)، توفي سنة 22ه.ينظر: الأعلام للزركلي (01/ 175).

[2] الطرماح بن حكيم بن الحكم، من طيئ: شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة، فكان معلما فيها. وكان هجاءا. له (ديوان شعر – ط). الشعر والشعراء (02/ 570)، الأعلام للزركلي (03/ 225).

[3] البحر المحيط (01/ 103).

صغيراً ضيقاً يحتاج الدَّاخل فيه إلى الانحناء، وَبَعُدَ هذا القول لأنَّه لو كان ضيقاً لكانوا مضطرين إلى دخوله ركعاً، فلا يحتاج فيه إلى الأمر، وهذا لا يلزم، لأنَّه كان يمكن أن تكون الحال لازمة بمعنى أنَّه لا يمكن أن يقع الدُّخول إلا على هذه الحال، والحال اللَّازمة موجودة في كلام العرب. وقيل: معناه خُضَّعاً متواضعين... وقيل: معناه السُّجود المعروف من وضع الجبهة على الأرض، والمعنى: ادخلوا ساجدين شكراً لله تعالى، إذ ردَّهم إليها. وهذا هو ظاهر اللفظ.. "[1].

ثامنا: إيجاز ما ورد في الآية من علم البيان والبديع.

قال أبو حيَّان: ".. ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها إفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع مُلَخَّصًا.. "[2]

مثاله ما جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾[البقرة: 26/ 27].

قال أبو حيان: ".. وقد تضمنت هذه الآيةُ الكبيرةُ نوعاً من البديع يسميه أرباب البيان: بالطِّباق. وقد تقدَّم شيء منه، وهو أن تأتي بالشَّيء وضدِّه، ووقع هنا في قوله تعالى: ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾، فإنَّهما دليلان على الحقير والكبير، وفي قوله:

---

[1] المصدر نفسه (01/ 383).

[2] المصدر السابق (01/ 103).

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.وفي قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَفِى قَوْلُهُ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ وفي قوله: ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾. وجاء في هذه الثلاثة الأخيرة مُناسبة الطِّباق، وهو أنَّ كل أوَّلٍ منها كائن بعد مُقابله، فالضلال بعد الهداية والنقض بعد التوثقة، والقطع بعد الوصل. فهذه ثلاثة تناسبت في الطباق"[1].

تاسعا: بيان معنى الآيات المفسرة اجمالا حسب المعاني المختارة.

قال أبو حيان بهذا الخصوص وبه ختم الكلام عن منهجه في كتابه قائلا: ".. ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور، أشرح به مضمون تلك الآيات، على ما أختاره من تلك المعاني جملها في أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معانٍ لم تتقدم في التَّفسير. "[2]

وهو مضمون قوله في التَّفسير بترجيح ما يختاره من تلك الوجوه .

هذا.. وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النَّحوية في تفسيره إلا أنَّه مع ذلك لم يُهمل ما عداها من النَّواحي التي لها اتصال بالتفسير، فنجده يتكلم على المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النُّزول، والنَّاسخ والمنسوخ، والقراءات الواردة مع توجيهها، كما أنَّه لا يُغْفِلُ النَّاحية البلاغية في القرآن، ولا يُهمل الأحكام الفقهيَّة عندما يمرُّ بآيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السَّلف ومن تقدمه من الخلف في ذلك[3].

---

[1] البحر المحيط (01/ 274)

[2] المصدر نفسه (01/ 103).

[3] التفسير والمفسرون (01/ 226).

ومما هو جدير بالذكر هنا أن تفسير أبي حيان الموسوم بالبحر المحيط قد جمع بين المأثور[1] والرَّأي[2]، فأبو حيَّان يذكر الآثار الثابتة عن سيدنا رسول الله ﷺ في الآية، وتفسيرُه محشود أيضا بنقل الأجلاء من الصَّحابة ﷺ، والثِّقات من التَّابعين[3].

كما يظهر مسلك التَّفسير بالرَّأي عند أبي حيَّان من خلال تقريره لمنهجه في عدة نقاط، منها حديثه عن جليِّ المعاني وخفيِّها في الآيات القرآنيَّة، حيث قال: "... مُتكلِّما عن جليِّها وخفيِّها بحيث لا أُغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها... "[4]

كما أنَّ الحديث عن غوامض الإعراب يُعَدُّ من الجوانب التي تميَّز بها أبو حيَّان في تفسيره هذا مِمَّا جعله مرجعا من مراجع إعراب القرآن الكريم عند من جاء بعد أبي حيَّان إلى عصرنا الحاضر، فنجد أبا حيَّان يُقَرِّرُ هذا المعنى بقوله: "... مُبديا ما فيها من غوامض الإعراب... "

ومن الوجوه الجميلة في هذا التَّفسير اهتمام مؤلفه بعلوم البلاغة والبيان والإعجاز القرآني فلم يكن أبو حيَّان بمعزل عن هذا الجانب، وهو ما أعطى صورة

---

[1] يشمل التفسير المأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول ﷺ، وما نُقِل عن الصحابة ﷺ، وما نُقِل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم. التفسير والمفسرون (01/ 112).

[2] التفسير بالرأي، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانته في ذلك بالشعر، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسِّر، ينظر: التفسير والمفسرون (01/ 183).

[3] مقدمة التحقيق من البحر المحيط (01/ 60).

(4) البحر المحيط (01/ 103).

جماليَّة في دقائق تفسيره ولطائف فوائده، فتعداد وجوه البلاغة في الآية الواحدة عند أبي حيَّان ينبئ عن نبوغٍ وتمكُّنٍ في هذا الجانب.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث نُلَخِّصُ خصائص منهج أبي حيَّان في تفسيره في مايلي:

أولا: تميَّز تفسير البحر المحيط بكثرة الشَّواهد النَّحوية والصرفيَّة. فقد كان أبو حيَّان الأندلسيُّ يتميز بحاسة نقديَّة بالغة الدِّقة، اكتسبها من طول مدارسته لِلُّغة والنَّحو، وقد وقف عليهما أغلب حياته، فكان مُلِمًّا بالشَّواهد اللُّغوية النَّحوية، عارفا بمواضع ورودها ومَحَالِّ الاحتجاج بها، ولم تقتصر انتقاداته على شواهد مفسر دون آخر، بل اعترض على كثير من المفسرين ممن اتخذهم مصدرا في تفسيره. والأمثلة في هذا الباب كثيرة جدا، بل تكاد تكون في تفسير كل آية من القرآن الكريم.

ثانيا: مما يتميز به أبو حيان في تفسيره دقة النقل والتحري في عبارات من ينقل عنه: فهو إذ ينقل من هذه التفاسير يحيل عليها بدقة متناهية.

ثالثا : ممَّا تميز به أبو حيَّان في تفسيره كثرة تعقباته على من سبقه. فهو ينقل في تفسيره كثيراً من تفسير الزَّمخشريِّ، وتفسير ابن عطيَّة، خصوصاً ما كان من مسائل النَّحو ووجوه الإعراب، كما أنَّه يتعقب من سبقه بالرَّد في مسائل النحو على الخصوص.

ومن خلال هذا كله نجد أن أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع فيها وهي الناحية النحوية التي طغت على ما عداها من نواحي التفسير، لكن يبقى البحر المحيط من جملة كتب التفسير التي ارتكزت في مادتها على الجوانب اللغوية فيَصحُّ تصنيفه في كتب التفاسير النحوية للقرآن الكريم.